المقاومة المسلحة الوطنية في متيجة (1830- 1840)

أ/ لمحة جغرافية عن المنطقة:

تمتد منطقة متيجة بين الساحل شمالا ومرتفعات الأطلس جنوبا، وبين بودواو شرقا وحجوط غربا، كانت تتكون من مجموعة من الأوطان وكل وطن يديره قائد، ويضم الوطن الواحد مجموعة من القبائل يرأس كل قبيلة شيخ، وهناك ثلاث قبائل رئيسية كانت تسيطر على المنطقة سياسيا وتجاريا وهي قبيلة بني خليل المتواجدة في الشريط الممتد من غرب الجزائر إلى الجنوب الغربي، وقبيلة بني موسى من الجنوب الغربي حتى الجنوب الشرقي، وقبيلة الخشنة من الجنوب الشرقي والشرق.

وقد عُرِفت المنطقة بسهولها الخصبة وبخضرواتها وبفواكهها ، إضافة إلى شهرتها بالأسواق التجارية، لاسيما المتواجدة في رقعة القبائل الثلاث السالفة الذكر، وكانت هذه الأسواق أكبر ممون لمدينة الجزائر باحتياجاتها من الخضر والفواكه والزيتون والحبوب والألبان واللحوم، ومن هنا تتجلّى الأهمية الاقتصادية لمنطقة متيجة ،زيادة عن كونها أقرب نقطة للعاصمة، مما زاد في جشع وطمع الغزاة الفرنسيين في الاستيلاء عليها، إلا أنهم اصطدموا بمقاومة عنيفة، فما هي الأسباب الأخرى لهذه المقاومة؟ وما هي المراحل التي قطعتها، وما هي الانعكاسات المترتبة عليها؟

ب/ أسباب المقاومة: يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

- الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر وانهيار السلطة المركزية، وظهور الفراغ السياسي وما ترتب عنه من فوضى واضطرابات عارمة في المدينة.

- استهتار العدو بالمؤسسات الدينية الإسلامية واغتصابه لأملاك سكان العاصمة العامة والخاصة.

- تطلّع الجيش الفرنسي للتوسع خارج العاصمة نحو منطقة متيجة.

- توفر المنطقة على شخصيات وزعامات دينية وقبلية كان لها دور كبير في الدعوة للمقاومة،أمثال الحاج ابن زعموم(زعيم قبيلة فليسة) و،الحاج علي السعدي(رجل ديني من عائلة محافظة بالعاصمة) و الحاج محي الدين بن المبارك(أغا العرب بالقليعة)،حيث لعب هؤلاء دورا كبير في إثارة القبائل الجزائرية ضد فرنسا بدعوتهم للجهاد و حمل السلاح.

ج/مراحلها:

مرّت المقاومة بثلاث مراحل متباينة من حيث التطوّر:

1/ المرحلة الأولى (1830- 1832):

بعد سقوط العاصمة و انتهاء المقاومة الرسمية باستسلام الداي حسين،بدأت المقاومة الشعبية، و في هذا الصدد كتب المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله قائلا:((و إذا كان أهل المدينة قد فضلوا السلام على الحرب و قرروا عدم الوقوف في وجه الجيش الفرنسي،فإن عرب البادية من الفلاحين و عمال الأرض و رؤساء القبائل و رجال الدين قد قرروا المقاومة و منع تقدم الجيش الفرنسي خارج المدينة، و من الطبيعي أن يكون أول من أصطدم بالعدو خارج المدينة،هم سكان متيجة الممتد من الساحل إلى جبال الأطلس))

اجتمع زعماء قبائل متيجة و عدد من علماء الجزائر ببرج البحري (تامنفوست) بالعاصمة في 23 جويلية 1830 ،وقرروا فيه إعلان الجهاد ضد الغزاة الفرنسيين، وضرب حصار على جيش الاحتلال ومنع توسعه وتموينه من خارج العاصمة.،و قد أكد المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله على أهمية هذا الاجتماع، بقوله ((و نتج عن ذلك الاجتماع أيضا ارتفاع الروح المعنوية و عودة الأمل بالتحرير))،**فكان هذا الاجتماع بمثابة إشارة انطلاق المقاومة الشعبية، التي شددت الخناق على العدو بالعاصمة عقب سقوطها.**

وبهدف فك الحصار المضروب على الجيش الفرنسي بمدينة الجزائر،قام قائده العام دوبورمون(De Bourmont) بشن حملة عسكرية على مدينة البليدة في 23 جويلية 1830، والتي كان مآلها الفشل بعدما تصدت لها قبائل متيجة: فليسة، بني موسى، والخشنة، وبني خليل ملحقين بها خسائر هامة ، قدّرت بحوالي خمسة عشر قتيلا، و43 جريحا، إضافة إلى التداعيات النفسية و المعنوية التي تركتها هذه الهزيمة في أوساط الجيش و قادته.

وأيضا فشل هذا الأخير في حملته التي قادها الضابط (دامر يمون) في الاستيلاء على عنابة خلال شهر أوت 1830م ،و قد تزامن ذلك مع فقدان دي بورمونلابنه (أميدي بورمون) في حملته العسكرية على وهران في 13 أوت 1830، التي اصطدمت بمقاومة سكان المدينة الباسلة و أجبرتها على الانسحاب من المرسى الكبير وحصون مدينة وهران .

كانت هذه النكسات التي تعرضت لها القوات الغازية سببا في إقدام الحكومة الفرنسية على عزل دوبورمون في 7 أوت 1830.و خلفه في القيادة(كلوزيلClauzel) ،الذي تمكنت قواته بقيادة الضابط (بوابيه) من الدخول إلى البليدة في 17 نوفمبر 1830، لكن سرعانما أرغمتها مقاومة السكان على الجلاء منها

وإذا كانت قوات كلوزيل قد نجحت مرة أخرى في الدخول إلى المدية في 22 نوفمبر من نفس السنة، وتنصيب عليها (مصطفى بن الحاج عمر) بايا جديدا خلفا لـ:مصطفى بومزراق ،الذي رفض الاستمرار في ولائه للفرنسيين وأعلن استقلاله عن دي بورمون وتلقب بلقب الباشا،إلا أنّ المقاومين الوطنيين وكان على رأسهم ابن زعموم أرغموه على

الانسحاب من المدية، وكبدوا قواته خسائر هامة في الأرواح والمعدات الحربية في البليدة وموزاية و بوفاريك أثناء عودتها من المدية في اتجاه العاصمة، وهو ما دفع بكلوزيل إلى الانتقام من السكان الأبرياء بكل وحشية حيث قام بارتكاب مجزرة في حق سكان البليدة خلال شهر نوفمبر 1830،لكن ذلك لم يثن من عزيمة المقاومين،حيث كثفوا من هجوماتهم على جيش الاحتلال بقيادة بيرتزينBerthezéne (خليفة كلوزيل)بالعاصمه،و شددوا الخناق عليه،و بدورهم تمكن الثور بقيادة بقيادة ابن زعموم من مهاجمة المزرعة النموذجية الاستعمارية بالقرب من وادي الحراش و إتلاف محاصيلها سنة 1831،و استمرت في تصديها لجميع محاولات العدو لفك الحصار المضروب على قواته.إضافة إلى الدور الكبير الذي أداه الحاج السعدي خلال هذه المرحلة في تعبئة السكان للمقاومة و قد ساعده على ذلك مكانته الدينية،كما قاد ميدانيا مجموعة من الثوار استهدف بهم المصالح الاقتصادية الإستراتيجية للعدو بسهل متيجة.

و تحت تأثير الانتصارات المحققة من طرف المقاومة خلال هذه الفترة،قامت فرنسا بعزل الجنرال بيرتيزين، و عينت الجنرال (دوق روفيقو Duc De Rovigo) كقائد جديد لقواتها،و راهنت عليه في سحق المقاومة بعدما وفرت كل الإمكانيات العسكرية الضرورية، لذلك لم يتردد هذا الأخير توظيف شتى الأساليب الوحشية للقضاء على المقاومة و الانتقام من السكان على طريقته الخاصة، من خلال إقدامه في ليلة الخامس أفريل 1832 في ذبح قبيلة العوفية (ما وراء وادي الحراش) عن آخرها أثناء نومها، كما قام هذا الأخير باغتيال بعض شيوخ القبائل بعدما أعطاهم الأمان مثل الشيخ العربي بن موسى قائد بني خليل والشيخ عبد الوادي قائد وطن السبت.

رغم الأساليب الوحشية التي انتهجها الغزاة الفرنسيون ضد سكان متيجة، إلا أنهم لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم على المنطقة خلال هذه الفترة أمام تزايد انضمام السكان إلى المقاومة والالتفاف حول زعمائها أمثال الشيخ السعديوابن زعموم، وبذلك أصبحت المقاومة في مرحلتها الثانية أكثر تنظيما واستبسالا في مواجهة الغزاة.

المرحلة الثانية: (1832- 1835)

تحققت القيادة الجديدة الموحدة للمقاومة على إثر الاجتماع التاريخي المنعقد بسوق الإثنين بالقرب من بوفاريك خلال شهر سبتمبر 1832،و فمنذ ذلك التاريخ أصبح يتولى الزعامة الروحية للمقاومة الحاج السعدي، بينما أسندت قيادتها العسكرية إلى الحاج بن زعموم وأبنائه

أستطاع الحاج السعدي(الضمير الحي للمقاومة)، أن يستغل علاقاته العديدة بشيوخ الزوايا ورؤساء القبائل بسهل متيجة، وحتى في منطقة زواوة ،و مكانته كرجل علم ودين وكفاءته في التأثير على الأعيان وعموم الناس، واستغل حتى رؤيته الصوفية التي يدعيها أهل التصوف، إذ كان يقول لأتباعه بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطاه في منامه راية الجهاد وأخبره بقرب انهزام الفرنسيين. كما تمكن هذا الأخير من إقناع صديقه الحاج محي

الدين شيخ زاوية القليعة بالانضمام إلى صفوف المقاومة والتخلي عن منصبه آغا العرب الذي منحته له الإدارة الاستعمارية.

استطاعت المقاومة خلال هذه الفترة أن تتصدى لجميع المحاولات العسكرية الفرنسية للسيطرة على القليعة وحجوط والبليدة، واستمر الوضع على حاله حتى تمكنت الإدارة الاستعمارية من اختراق صفوف القبائل عن طريق انتهاجها لسياسة فرق تسد، بحيث استطاعت أن تعين بعض الموالين لها على أعراش (أفراد من قبيلتي بني خليل و بني موسى) ،وضمنت بذلك التعامل التجاري مع هذه الأعراش ،مكسرة بذلك الحصار المفروض عليها، إضافة إلى تغيير إستراتيجياتها العسكرية في مواجهة المقاومة وذلك باعتمادها أسلوب الهجومات الخاطفة بفرق عسكرية صغيرة العدد، طيلة سنتي 1833 و1834.

و في ظل هذه الظروف أخذت انتصارات مقاومة الأمير عبد القادر و امتداد نفوذه إلى المدية سنة 1834، في الانتشار في أوساط الثوار و قادتهم، الذين لم يترددوا في الاتصال به بالمدية وإعلان الولاء له باعتباره رمز الجهاد و الوحدة الوطنية، وبذلك أصبحت مقاومة متيجة بداية من سنة 1835 متصلة ومرتبطة بمقاومة الأمير عبد القادر، فقام هذا الأخير بتعيين الحاج سيدي المهدي خليفة لها على منطقة متيجة وزواوة.

المرحلة الثالثة: (1835- 1840):

لاشك أن اتصال زعماء المقاومة الثلاثة(الحاج سيدي السعدي، و الحاج محي الدين مبارك، وابن زعموم) بالأمير عبد القادر و قبولهم الإنضمام إلى مقاومته،راجع بالدرجة الأولى إلى الرغبة في توحيد الجبهة الوطنية ضد العدو الذي عزز من قوته العسكرية المادية و البشرية.

ظل الحاج السعدي كزعيم ديني وكخليفة للأمير عبد القادر خلال هذه الفترة يدعو للجهاد ويربط الاتصالات مع الزعماء الدينيين والقادة العسكريين للمقاومة في منطقة متيجة من أجل الاستمرار في القتال ووضع حد لاستيلاء الفرنسيين على سهل متيجة والتحكم فيه.

كما توطدت صلة الأمير بمتيجة بعدما أعلن زعماء شرشال والقليعة أمثال الشيخ محمد بن عيسى البركاني والحاج محي الدين المبارك القليعي ولاءهم للأمير، وفي ظل هذه الظروف شنّت فرنسا عدة حملات عسكرية على متيجة، لاسيما التي قادها الماريشال كلوزال (الذي عاد إلى الجزائر خلفا للقائد ديلرون) على مدينة البليدة في 21 أكتوبر 1835، وحملة أخرى قادها الجنرال دامريمون على نفس المدينة في 29 أفريل 1837 إلا أنّ المقاومة أحبطت هاتين الحملتين بكل بسالة.

وبعد توقيع فرنسا معاهدة التافنة مع الأمير عبد القادر في 30 ماي 1837،التي كان لها انعكاسات سلبية على مسار المقاومة الوطنية،حيث مكنت فرنسا من التفرغ لسحق المقاومة في متيجة،حيث كثفت من حملاتها العسكرية عليها خلال الفترة التي حكم فيها الماريشال فاليه الجزائر(1837 الى 1841)، ولم تتمكن من فرض سيطرتها التامة عليها إلا بعد انتصارها في معركة وادي العلايق في نهاية ديسمبر 1839،كما استطاع هذا الأخير في

سنة 1840 فرض سيطرته على مدن هامة كانت محسوبة على الأمير و هي: مليانة و شرشال و القليعة.